رُوحُ التربيةِ العصرية

بين الفردية والتضامن الاجتماعى

بقلم الأستاذ صلاح الدين الشريف المحامى

تدور اليوم على الأفواه وتتردّد كثيرا فى كل مكان كلمة " الفردية " ، وقد أتاحت لها ظروف هذه الحرب الاجتماعية أن تشغل حيزا كبيرا من عناية الكتاب والبحاث وأن تحظى مسألتها باهتمام دولة كبرى هيض اليوم جناحها وقد كانت بالأمس القريب فى طليعة المؤثرين لها والداعين اليها فى إيمان وإخلاص .

وهذا الاصطلاح مشترك المعنى عام الدلالة تجده مبثوثا فى العلوم القانونية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية . وهو ، ان أردنا مدلوله الأصيل مجردا عن فنية الاصطلاح ، يطلق على كل جهد إنسانى ينحو نحو إيثار الفرد أو دراسته كعامل اقتصادى واجتماعى هام له أثره البعيد فى توجيه مصاير المجتمع وطبع ميول أبنائه بطابع خلقى أو تربيىّ خاص .

وللفردية فى مجالات النشاط الاجتماعى صور كثيرة وأساليب متعددة وآثار موجبة وسالبة لا يجوز لمن يتصدى لها بدرس أو يعرض لها بنقد أن يغفل أى جانب منها حتى تستوى له جادة البحث وتكتمل أدواته فيخلص منه الى نتيجة لا تكون مظنة التعصب والتحامل ومجافاة الروح العلمية والبحث المنزه .

ومقصدنا هنا هو أن ندرس الروح الفردية وأن نقارنها بروح التضامن الاجتماعى فى مجال التربية العصرية ، ثم نفحص أثر كل من المبدئين فى وضع المناهج وتنظيم طرائق الاصلاح ، حتى نكون على بينة من الاتجاهات الصائبة التى يجب أن تتجه اليها التربية فى كلا المدرسة والمنزل .

وباحة المجتمع هى مجال الانسان ومصال نشاطه ، ولو اقتفينا أثر أىّ من ألوان النشاط الاجتماعى وتقصينا أصوله لوقف على مصدره الأول الذى نجم منه ونصل الى منابعه الأصيلة التى صدر عنها ، وجدنا أن هذا النشاط الاجتماعى أو بالحرى هذا النشاط الانسانى ، فردىّ فى مصدره Individualiste فقيمة الانسان كعنصر اجتماعى متوقفة حتما على مزاياه الشخصية وصفاته الفردية ، الأصيلة فيه والمكتسبة ، كدرجة نشاطه مثلا ومقدار ذكائه ومدى حبه للنظام .

واذا أبعدنا قليلا فى تحليلنا الدوافع السيكولوجية والعوامل الطبيعية من وراثية واجتماعية واقتصادية — وهى التى تغرس فى الانسان صفاته أو تنمى فيه ميزاته وخلائقه وتتجه بها وجهة صالحة مستوية أو أخرى معوجة منحرفة — لكشفنا عن الباعث الأول فى نماء بعض الصفات وانحطاط بعضها الآخر ، ولعرفنا السبب الأصيل فى انسياق الانسان الغريزى إلى التخلق ببعضها والى هجره البعض الآخر . هذا السبب وذلك الباعث يرجعان الى ما يسمونه حب الذات égoïsme أو رغبة الانسان فى تحسين حالته .

وحب الذات ، كما تقول الاستقراءات السيكولوجية فى تطور الانسان الاجتماعى ، ليس شخصيا فحسب بل هو عائلى أيضا ، إذ أن الانسان يعمل ويكدح دائبا لنفسه ولعائلته . ويقول العلامة "تروشى" إن هذه الصفة الفردية للنشاط الاجتماعى فى مختلف صوره وألوانه هى التى أدت الى رقى العالم واطراد حضارته بما أظهرت من سياسيين ومشترعين ومخترعين سخروا مواهبهم وملكاتهم لخدمة الحضارة الانسانية وإذكاء طموحاتها نحو التسامى والاستعلاء .

وحب الذات ، ككل غرائز النفس الانسانية ، قوة جامحة وفطرة ملتهبة لا بد للافادة منها أن يعنى بترويضها وتهذيبها والمطامنة من جماحها . ولقد مضى ذلك الوقت الذى كانت التربية تتجه فيه إلى مجرد حشو العقول وشغل فراغها حيثما اتفق والاتجاه بها وجهة آلية محضة تصلح لمجرد المحاكاة العمياء والترديد الأصم ، وإغفال الملكات العقلية وإهمال القوى الكامنة وعدم التعرض للغرائز الغفل بدرس أو تجريب أو اختبار . فالانسان ككائن اجتماعى أو وحدة سيكولوجية ، هو مجموعة من الغرائز إذا أفلحت رسالة التربية المثلى فى أن تمكن صاحبها من التحكم فيها ، تهيأ للفرد فى ذات الوقت أن يوجهها كما يشاء بدل أن تتحكم هى فيه تحكمها فى الحيوانات الدنيا فتوجهه مسلوب الارادة حائر الهدف مطموس الشخصية حيوانى النزعات . والتربية الصالحة هى التى تفهم سيكولوجيا الغرائز وتهتدى بها فى أى منهج نهجته وتعمل على تخليق الفرد فى حدود غرائزه المهذبة وملكاته المنماة .

فالفرد مثلا ، مدفوعا بغريزة حب الذات ، ميال الى الأثرة نزاع إلى الأنانية . فهاتان خلتان فطريتان من شأنهما أن تشعلا فراغ ذهنه وتملكا عليه مشاعره فى مراحل العمر الأولى . وهما إن لم تجدا المهذب والمثقف يتولاهما بحسن الصقل ودقة التوجيه وصائب التلقين والايحاء ، مستعينا مرة بالعمل الملموس وأخرى بالتجربة المحسوسة ومرات بالدلالة والبرهان ، ظلتا على حالها الأولى وصارتا مصدرا لتقلقل الشخصية وزوالها ، وقد تصبحان مصدرا لمتاعب المجتمع إذا مادفعتا بصاحبهما إلى أحضان الجريمة وأغرتاه على الغواية ومقارفة الآثام .

وتتدرج فى حكم هذا القياس أقوى غرائز الانسان وأشدها تحكما فيه و إملاء عليه، وأعنى بها الغريزة الجنسية ، فهى إن لم تجد الوازع التربيى والضابط التهذيبى دفعت بصاحبها لا محالة إلى الاستهتار والاستباحة، وعندهما تموت كل المعانى الشريفة فى نفسه ، ومن ثم يصبح كأسير مستضعف لهذه الغريزة يؤمن بأنها مجرد أداة للاستمتاع والتفريج ووسيلة لإشباع الميول الشهوية الجامحة . ولقد يثقل عليه أن يفهم أنها وسيلة حفظ النوع وتكوين الأسرة لبناء مجتمع غنى بعائلاته قوى بأفراده ، وهكذا تتخاذل عوامل الابداع والبناء فى شخصيته وتغلب عليها جميعا حيوانية آسرة ترد الفرد أجيالا إلى الوراء ، إلى إنسان الغابات والأدغال .

والشخصية المستقلة التى تنشدها التربية العصرية ، هى مجموعة هذه الغرائز ، بعد ترويضها وتهذيبها وسوقها نحو الابداع والخلق لصالحها وصالح المجموع الذى يحتاطها . هذه الشخصية المعدودة حجر الزاوية فى المناهج الحديثة ، هى فى حقيقة أمرها شخصية فردية وليست بالطبع شخصية اجتماعية . ونعنى بهذا أنها — بصرف النظر عن العوامل الاجتماعية المتعددة التى خلقتها ونمتها — تحس أو قل يجب أن تحس فى كل مرحلة من مراحل العمر التعليمية بذاتيتها واستقلالها وأنها مهيأة دوما لأن تتعامل مع مجموعة كبيرة متحفزة من الأفراد فيما يشبه الكفاح والعراك ، فهى تعلم أو يجب أن تعلم أن باب التنافس الشريف لا يزال مفتوحا أمامها على مصراعيه وأن الغنبة فيه للأقوى إرادة والأرجح عقلا والأصقل غرائز والأنضج ملكات . والحق أن هذا التصادم المتصل بين الشخصيات جميعا هو الذى يبرز قويها على ضعيفها وهو الذى يهيئ لأولئك الذين استكملوا خصائص الشخصية المستقلة الطامحة أسباب التفوق والنجاح والتبريز فى دنيا الكفاح والعراك . وهنا تتجلى الخصيصة الفردية فى أجلى مظاهرها ، وهنا يجب أن ننظر إلى الانسان من وجهته الفردية كعامل ذاتى مستقل له أهميته القصوى فى دائرته الفردية المستقلة ، وعندئذ يستقيم لنا القول بأن الأصل فى نشاط الانسان الاجتماعى فى مختلف أشكاله فردى محض ، ولهذا كان فرضا واجبا على مناهج التربية الحديثة إذكاء هذه الفردية فى الانسان و إنماؤها فيه حتى تجعله يستشعر ذاته مميزة مستقلة عن ذوات أقرانه .

ولكن هذا النشاط الانسانى الفردى فى مصدره له فى ذات الوقت مظهر اجتماعى واضح وهذا المظهر يتجلى فى الغاية المقصودة من هذا النشاط . والغايات الفردية جميعا تهدف نحو هدف كبير واحد هو المجتمع ، فكأن المجتمع هو الوسط المادى الذى لا يتهيأ بدونه لمجموعة الأفراد أن تكدح وتنتج لأنفسها ولمجموعة عائلاتها . فان حق للأفراد أن تتنافس فى كافة مناحى النشاط الاجتماعى للقيام بواجب معايشها ولإشباع حاجات الأسرة ،

فانه باق علينا أيضا أن تعلم أو أن تلقن أن هذا التنافس الضرورى لإنضاج الملكات وحفز قوى الخلق والإنتاج فى شخصية الفرد ليس مقصودا لذاته ، وإلا فهمنا منه معنى الصراع المادى المخرب الذى يستحل ويبرر كل ما يؤدى إلى أغراضه وغاياته من وسائط وأسباب. ولكنما المقصود فى مجال النشاط الاجتماعى القائم على الأفراد هو المجتمع ، أى ترقيته والمحافظة على وحدته وتحقيق التضامن بين أفراده . وعلى هذا الوجه يمكننا أن نفهم مدلول اصطلاح " التربية الاجتماعية " التى تهدف نحوها المناهج البداجوجية المثلى .

وهذه المناهج تحرص على تقوية تلك الحاسة فى نفوس الناشئة وتحفزهم على التصرف والسلوك فى هدى من هذا التضامن ينشأ فى مبدئه بين هيئات المعهد الدراسى وفرقه المختلفة ثم بين هيئات المجتمع الفسيح وجمعياته الكثيرة المتعددة .

فالفردية والتضامن الاجتماعى إن ظهرا أول وهلة على طرفى نقيض ، فهما فى الواقع بمثابة حلقتين متصلتين لا انفصام بينهما يمثلان شطرى التربية العصرية . وليس يكمل أى منهج تربيى لا يأخذ بهما ويؤلف التجاوب والانسجام بينهما .

ولقد أفاض البداجوجيون فى أوربا وأميركا فى دراساتهم المتجهة الدائرة حول هذين القطبين الرئيسين واستخلصوا من مجموعة تجاربهم وخبرتهم وأصول فن التربية الحديثة مبادئ عامة على جانب كبير من الأهمية ،افتئوا يوصون وزارات التعليم ومجالسه باتباعها والسير على هديها . ولعل أهم هذه المبادئ العامة هى الصلة بين المناهج والتلميذ وكون التعليم جزءا هاما من عملية تربوية تقوى جانب الاستقلال والاعتماد على النفس وتفتيق الملكات واعتبار المدرسة جزءا من المجتمع الكبير ثم الاعتراف للتلميذ بقسط وافر من الحرية الفردية ، وأخيرا الاتجاه بالتعليم وجهة التجربة أى أن مايتضح فساده أو عدم ملاءمته من المناهج يجب تركه إلى غيره بشرط تحرى الأناة والدقة فى وضع سياسة التعليم مع الاستفادة من أخطاء الماضى وعثرات التجارب السابقة والاستنارة بجهود الأمم التى سبقتنا فى هذا المجال .

فمعنى دوران محور السياسة التعليمية حول التلميذ أننا يجب أن ننظر إلى التلميذ كغاية وهذه الغاية هى التى يجب أن تخضع فى سبيل تحقيقها على الوجه الأكمل سياسة التعليم بكاملها ، بمعنى ألا نغتر بأن لنا مناهج تقرر وكتبا تؤلف وأساتيذ تعين وهكذا ، بل يجب أن ننظر إلى مدى تأثير هذا كله فى التلميذ وهل أفاده حقا أم أتخمه ، وهل كل هذا النظام يتطور لصالحه وبالتالى لصالح مجتمع مثالى أم أنه يجرى آليا إلى غير غرض سوى إخراج

نسخ مكررة من تلاميذ مرضى العقول ضعاف النفوس قلق الشخصية يثقلون على كاهل المجتمع ولا يمثلون الا الأعضاء المشلولة فيه .

ومعنى أن التعليم هو سبيل إلى تقوية ملكات التلميذ وتفتيح قوى عقله ، أن تجعل من الطالب عاملا منتجا فعالا ليتهيأ لحياة اجتماعية منتجة فعالة يخدم بها نفسه ووطنه وأسرته .

والمدرسة أو المعهد العلمي أيا كانت درجته فى سلم المراحل التعليمية ، هو فى حقيقته مجتمع صغير أو يجب أن يكون صورة مصغرة للمجتمع الكبير فتتجه عملية التثقيف فيه وجهة تجريبية عملية منشطة . فيجب أن يتمتع التلميذ بحرية الرأى ويدرب على سعة البحث ودقة الحكم وأن يتعود المنافسة الشريفة التى تثير فيه كوامن ملكاته وروافد مواهبه ، وأن يحتصر من المناهج ما يتخم عقله ولا يفهم ميوله ولا نصله بالحياة صلة .

ولعلنا نلاحظ أن هذه القوى الأساسية وغيرها ، مما أغفلناه خشية الإملال ، خليط من المبادئ التى يخو بعضها منحى فرديا محضا ويتجه الآخر وجهة اجتماعية صريحة مما يدلنا أقطع الدلالة على أن الفردية والروح الاجتماعية صفتان أصليتان أو قانونان أساسيان فى كل دستور تعليمى محترم .

ونحن إذا طبقنا هذه القواعد أو بالحرى وازنا بين حال الذين يعملون بها وحالنا — ونحن نفهمها ولا نعمل بها — وجدنا أن التلميذ الغربى غنى بشخصيته قوى بأخلاقه ووجدنا أنا مازلنا مفتقرين إلى الشخصية القوية نزود بها الطالب المصرى فى مراحل تعليمه جميعا لتنفعه فى حاضره ومستقبله عند ما يريد أن يشق له طريقا فى الحياة ، وأن الخلق يجب أن نوجه إليه عناية عملية أقوى من العناية التى نتولاه بها الآن .

و بعد فالذى ينبغى أن نعرفه كما قال أحد المشتغلين بالتربية عندنا هو أن شخصية التلميذ وعقليته أهم بكثير من معلوماته وأن خلق الفرد أهم من ذكائه وأن المدرسة جزء من المجتمع لا وحدة إدارية وأن العبرة فى الانتاج المدرسى بالنوع لا بالكم .

صلاح الدين الشريف

المحامى